

الوالدة حين عودتنا من المدرسة الخبز الطازج والطبخ الساخن وأرجاء البيت الدافئ بالحب العامر بالحنان لم أكن أدري بالضبط كيف يعيشون ؟ وماذا يأكلون ؟ ماذا تحوي هذه الحقائق والسلات التي يحملون ؟ والأمر لم يكن يشغل بالي كثيرا صحيح أنه يدق كثيرا في رأسي وأنا أقف من بعيد أراقب الحركة ولكن إذا ما استدرت مع الأقران أصبحنا في عالم آخر كنت أرى والذي كل يوم حين يمود أراه منهكاً متعباً للغاية ولكنه سعيد للغاية خاصة حين يرى ثوبي الجديد أو حذاء بده العام الدراسي أو الحقيبة الجديدة في معظم الأيام كنت أستيقظ فلا أجده في البيت وأدركت فيما بعد أنه يخرج مبكراً قبل بزوغ أول إشعاات الشمس للعمل إذا علي الآن أن أعيش تلك الحياة وأعرف أسرارها من داخلها لم أكن قد تجاوزت السادسة عشر عندما بدأت أحمل حقيبتني التي تعدها والدتي لي مثل حقيبة والدي وحقيبة أدهم لأخرج في الصباح أنتظر زوج خالتي ليصطحبني معه للعمل كانت المرة الأولى عجيبة حياة جديدة وعالم جديد أفتحمة اليوم وتفتحت عياني على حقيقة هذه الظاهرة يا للهول عشرات آلاف العمال ينتقلون يوميا يسافر أقلهم ساعة ذهابا وساعة إيابا حتى يصل مكان عمله والبعض يسافر الساعات حملت الحقيبة وودعتني عيون الوالدة والأخوات بكل الإشفاق الذي عرفته المعمورة منذ خلقت وخرجت أنتظر زوج خالتي في المكان الذي حدده لي ليلة أمس ركبنا السيارة مع عمال آخرين وانطلقت نحو الشمال كانت قديمة من نوع بيجو لست

أعرف حول موديلات السيارات شيء ولا في سنوات إنتاجها وبين الآلاف من مثيلاتها وشبهاتها إنطلقت تنهب الأرض وعيونتي تنظر مرة على اليمين ومرة على الشمال أشعر بحب عظيم لهذه الأرض التي تطأها قدمي أو عجلات السيارة التي أركب للمرة الأولى إحساس عجيب ومزيج من المشاعر بين الحب والاعجاب والدهشة والإشفاق والغربة والفضول الطريق طويل وممتد والسيارات منطلقة وأنا أعجب من هذه السيارات القديمة التي لا تتفكك أوصالها وهي منطلقة بهذه السرعة العجيبة أو لا تنحرف عن مسارها فيرتطم بعضها ببعض الآخر أو تنحدر هناك بعيدا على جانب الطريق ويندأ المقاتل في شرح العمل المطلوب مني بالضبط وأنا أحاول مساعدته في العمل التي يجب أن أقوم به أنا في الأيام القادمة وحتى يأذن الله عز وجل في أمري أعد الخلطة هو الذي أنجز معظم العمل وأنا أحاول المساعدة أو أراقبه وهو يعمل ليبدأ بعد ذلك في مزاوله عمله المطلوب منه وهو إجراء بعض الإصلاحات في الجدران فهتمت بعد حين أنهم يسمون هذا العمل بالمعبرية "توكنيم" يعني ترميمات أو إصلاحات وبدأت أقوم بدوري في مناولته ما يلزم من مواد وأدوات أو بالتنظيف خلفه ويوم بعد يوم اعتاد علي العمل أكثر وأعرف عن حياة هذه الطائفة المزيد والمزيد أكلت الخبز البارد والبائت وبدأت أعتاد علي الطبخ البارد الذي أعد في اليوم السابق يا الله هذه حياة جديدة قاسية صعبة فظة لا تعرف الرحمة خاصة علي صفار السن الذين لم يقسوا عظيمهم بعد شعور عجيب بالشوق لدفء